التناسب البياني في السنّة النّبويّة

محمد مختار المفتي*

الملخص

تناقش هذه الدراسة موضوع التناسب البياني في السنة النبوية، فتعرِّفه، وتبيِّن قيمته في البيان الحديثي، وتعرض جهود الدارسين القدماء والمحدثين، من الأدباء والنقاد والبلاغيين في دراسة التناسب البياني، وتكشف عن أهميته في الدراسات الأدبية، والنقدية، والبلاغية الحديثة، وتعرض لأوجه التناسب المعنوي، واللفظي، والصوتي في البيان الحديثي، وتبيِّن مراعاة الرسول –عليه الصلاة والسلام– للتناسب بأنواعه المتعددة في نسج نصوصه وألوان خطابه.

الكلمات المفتاحية: التناسب البياني، السنة النبوية، علم المصطلح، الأدب، النقد، البلاغة.

The Rhetorical Proportionality in the Prophetic Tradition (Sunnah)

Abstract

This study discusses the rhetorical proportionality in the Prophetic tradition (Sunnah), its definition and value. It presents efforts of ancient and contemporary researchers, writers, critics and rhetoricians in the study of rhetorical proportionality. The study reveals the importance of such efforts, and demonstrates aspects of moral, verbal, and phonetical proportionality in the Prophetic tradition, and shows that the Prophet (peace be upon him) has structured utterances of all his discourse forms using various types of proportionality.

Key words: Rhetorical proportionality, Prophetic tradition (Hadith), Terminology, literature, criticism, rhetoric.

* دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه، عضو هيئة تدريس في قسم أصول الدين في كلية الشريعة، جامعة آل البيت، الأردن. البريد الإلكتروني: mohammadmufty@yahoo.com

تم تسلّم البحث بتاريخ ٢٠١١/٨/٣م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٢/١/٢٨م.

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة التناسب البياني في السنة النبوية، وتبيِّن أهميته، وجهود الدارسين القدامى والمحدثين من الأدباء في دراسته، كما تعرض لأوجه التناسب المعنوي، واللفظي، والصوتي في البيان الحديثي، والخصائص الفنية التي يتصف بها الحديث النبوي من حيث قيمته، وتناسب معانيه، وألفاظه، وأصواته، وإيقاعاته، وتلقي الضوء على تناسب الأصوات في نظم الحديث، وتأليفها، وتجنب أسباب التنافر الصوتي فيه، وتوضح مدى التناسب بين المعنى والإيقاع الصوتي في الخطاب الحديثي، ومدى ارتباطه بدلالات الحديث النبوي الشريف. وقد عمد الباحث إلى العناية بهذا الموضوع؛ نظراً إلى بُعْد التناسب عن اهتمام الدارسين، والعلماء، والمتذوقين من النقاد والأدباء، والاضطراب الشديد الذي رافق استعماله مصطلحاً، وإثارته جدلاً واضحاً بين الدارسين في جعله مبدءاً بيانيّاً رئيساً يشمل العديد من فنون صياغة العبارة، ونظم المعاني، أو حصره في المناسبة بين مطلع الكلام، وخاتمته، أو الإتيان بكلمات مقترنات في أواخر الجمل. تكمن أهمية الدراسة وبواعثها في المسؤولية المُلقاة على عاتق الدارسين المعاصرين في دراسة التناسب البياني وأهميته المرتبطة بالحقول الأدبية، والنقدية، والبلاغية، والعلوم الدينية كلها.

وبما أن هذا المصطلح يُعَدّ أحد أهم عناصر الجمال، وأبرز شروط البلاغة والفصاحة في التعبير اللغوي؛ فقد تنبهت الدراسة لأهمية مصطلح التناسب لما يحمله من دلالة على جودة النظم، وجمع العناصر التي يتألف منها الكلام، ودقة نسج المقاطع الصوتية المكونة للعبارة، ومراعاة الرسول -عليه الصلاة والسلام- للتناسب البياني بأنواعه: اللفظي، والمعنوي، والصوتي، والإيقاعي في نسج نصوصه الثابتة ضمن سياق تقل فيه دراسة التناسب البياني في السنة النبوية، والدراسات الأدبية، والبلاغية على المستويين: النظري، والتطبيقي.

أولاً: التناسب البياني والدراسات الأدبية القديمة

١. أهمية التناسب البياني:

يستعمل مصطلح "التناسب"[١] في الدراسات الأدبية والبلاغية بمعنى الملاءمة، والموازنة، والمشاكلة، والتوافق، والتشابه، والائتلاف. وقد ورد في "المقابسات" أن أبا حيان سأل أستاذه أبا سليمان المنطقي عن البلاغة ما هي؟ فقال: "هي الصدق في المعاني مع ائتلاف الأسماء والأفعال والحروف، وإصابة اللغة، وتحري الملاحة المشاكلة، برفض الاستكراه ومجانبة التعسف... ."[٢] ونشير هنا إلى أن التناسب هو من أهم عناصر الجمال، وأبرز شروط البلاغة والفصاحة في التعبير اللغوي، وفي ذلك قال ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): "وأما المرئيات والمسموعات، فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته، بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة، والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة، فتلذذ بإدراك ملائمها... ."[٣]

فالتناسب عنده أساس اللذة، وعدمه سبب في الألم، قال: "إن اللذة هي إدراك الملائم، والمحسوس إنما تدرك منه كيفية، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة، وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة."[٤]

والحديث النبوي نص متناسب لا يعلو عليه في مجال البيان إلا كتاب الله بلاغة، وفصاحة وروعة، وقد أورد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين": "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، واستعمل المبسوطَ في

[١] ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، ج١٤، ص٢٤٢ انظر أيضاً:
– القطان، إبراهيم. **عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام**، الكويت: دار القرآن الكريم، ط١، ١٩٧٢م، ص٨٠٣.

[٢] التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد. **المقابسات**، تونس: دار المعارف، ١٩٩١م، ص١٨٥.

[٣] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧٨، ص٤٢٤.

[٤] المرجع السابق، ص٤٢٤. وانظر:
– البقالي، ناديا، "التناسب البياني في الحديث: دراسة في النظم المعنوي والصوتي"، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٦م، ص٢٤.

موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقَى اللّه عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار، ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق، ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمِز ولا يَلْمِز، ولا يُبْطِىءُ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرَم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه ﷺ."[٥]

ثم أضاف قائلاً: "ولعلّ بعضَ من يتَّسِع في العلم، ولم يعرفْ مقاديرَ الكَلِم، يظُنّ أنّا قد تكلّفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلُغه قدْرُه، كَلاَّ والذي حَرَّمَ التزيُّدَ على العلماء، وقبَّح التكلّف عند الحكماء، وبَهْرَجَ الكذَّابين عند الفقهاء، لا يظنّ هذا إلا من ضلَّ سعيُه."[٦]

لم يكن التناسب مقصوراً على البنية العامة لنصوص الحديث النبوي، والجودة العالية لأسلوبه، وعمق معانيه، وانتقائه الكلمة المفردة والجملة المركبة، بل جاوز ذلك إلى الأداء. فلقد كان إلقاؤه ﷺ الحديثَ بالغاً درجة الكمال؛ ذلك أنه ﷺ كان ضليع الفم، وكان يستعمل فمه جميعه إذا تكلم، وعرف بطول سكوته، لا يتكلم في غير حاجة، وإذا تكلم لم يسرد سرداً؛ بل فصّل وتمهل، وأعاد، ورتّل. روى البخاري عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه.[٧]

---

[٥] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**، بيروت: دار الفكر، ١٩٦٨م، ج٢، ص١٧.

[٦] المرجع السابق، ج٢، ص١٨. وانظر:

– البقالي، **التناسب البياني في الحديث**، مرجع سابق، ص٥٣.

[٧] البخاري، محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، القاهرة: دار ابن الهيثم، ط١، ٢٠٠٤م، كتاب العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، حديث رقم٩٣.

أمّا معاني الحديث ففيها غنى مدهش، مع عمق الأفكار وجِدّة المبادئ: "أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى."[٨] فدعوته ﷺ إلى المساواة من دون تمييز مثّلت معنى جديداً فاجأ به العالم. هذا مع تحرِّيه ﷺ للأحكام، والغوص في أغوار النفس الإنسانية وتدبر أبعاد هذه النفس، ممّا مكّن لهذه المعاني أن تبقى خالدة. وقد تميّز حديثه ﷺ بخصائص عدّة جعلت أسلوب الحديث في أعلى مراتب أساليب البيان البشري، مثل:

- نظم المعاني الكثيرة بالمفردات القليلة مع حسن الصياغة، قال الرافعي: "إنه كلام كلما زدته فكراً زادك معنى."[٩]

- تأثيره في سامعيه واستحواذه على إعجابهم؛ وذلك لانتقائه الكلمة المفردة، والجملة المركبة، والألفاظ المتناسبة ذوات الإيقاع الموسيقي المحبب.

- بُعده عن التكلف، وتجديده في أساليب النثر العربي.

٢. التناسب عند علماء البيان:

أدرك البيانيون ما للتناسب المعنوي واللفظي من أثر في جودة الكلام، وزيادة حظه من الفصاحة والبيان، إلاّ أن كثرة المصطلحات أفقدت هذا العلم كثيراً من حرارته وروعته، فغابت بذلك بعض معالم أصالته، وتعمقه في الخصائص البيانية والصوتية التي تمتاز بها لغة العرب. ومن الذين دعوا إلى مراعاة التناسب بين المعاني وأقدار المستمعين بشر بن المعتمر، فقال: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين."[١٠] كما مال إلى إيثار التناسب اللفظي والمعنوي بقوله: "ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف."[١١]

---

[٨] الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الشامي. **المعجم الكبير**، الرياض: دار الصميعي، ط١، ١٩٩٤، حديث رقم ١٤٤٤٤.

[٩] الرافعي، مصطفى صادق. **وحي القلم**، القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٨١م، ج٣، ص٩.

[١٠] ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد. **سر الفصاحة**، عمان، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٦، ج١، ص٨٧-٨٨.

[١١] الجاحظ، **البيان والتبيين**، مرجع سابق، ج١، ص٧٨-٨٨

ولدى النظر في كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وما خلّفه من تصانيف نجدها تحمل في تضاعيفها ما يصور قيمة هذا المبدأ البياني، وقد عرف عنده بأسماء متعددة، منها: الموافقة، والمماثلة، والمشاكلة، والتشابه. قال: "ومتى شاكل- أبقاك الله- اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع، وحقيقاًبانتفاع المستمع."[١٢]

وقال: "إذا كان الشعر مستكرهاً وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العِّلات، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان اللسان عند إنشاء ذلك الشعر مؤونة،"[١٣] وذكر "أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً جيداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان."[١٤] وقال: "أوصيك أن لا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة."[١٥]

ولا نكاد نفرق بين مصطلح المناسبة، ومصطلح المشاكلة في وصيته تلك. كما أنه جمع بين مصطلح التشابه والمشاكلة، فقال: "كأن بينها وبين الإنسان تشابه، وتشاكل من وجوه."[١٦]

لقد تحدث الجاحظ عن قيمة التناسب في سلامة الشعر والنثر بمصطلحات متقاربة، وأشاد بالحديث في كتابه "البيان والتبيين" قاطعاً الحجة على من يريد التشكيك به، وصنف كتاباً في حجج الرسول، ودلائله، وشرائعه، وسننه، وإيراد علاماتهن، وبرهاناته

[١٢] المرجع السابق، ج١، ص٢١٦.
[١٣] المرجع السابق، ج١، ص٤٩.
[١٤] المرجع السابق، ج١، ص٤٩-٥٠
[١٥] المرجع السابق، ج١، ص١١٥.
[١٦] ربّما يكون خص هذا الموضوع بمزيد من الاهتمام في كتبه الأخرى التي لم تصل إلينا؛ فقد عاش الجاحظ في ظل الصراع المرير بين المعتزلة وأصحاب الحديث حتى كان كل من الفريقين يتوسل إلى رجال السلطة لنصرته على خصومه. ومع أن الجاحظ معتزلي كان يخرج في كثير من الأحيان عن مذهبه ويتبع الحق، ومن ذلك لم يقل بالصِّرفة.

ودلائله وآياته، وصنوف بدائعه وأنواع عجائبه في مقامه وظعنه، وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم.[١٧] [١٨] وقد وصف الحديث بكلام رائع،[١٩] درس بعضه، وأورد طائفة غير قليلة من دون تحليل أو تعليق، أو، دراسة.[٢٠]

أمّا الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) فوظّف مصطلح "الموافقة" و"المواتاة" للتعبير عن التناسب المعنوي في حديث الرسول ﷺ؛ فبعد عرضه للحديث الذي رواه عن النبي ﷺ أبو رزين العقيلي:[٢١] "الرؤيا على الرجل طائر ما لم تعبر"[٢٢] قال: "ولما جعل تعبيرها على الأمر المكروه بمنزلة وقوع الطائر موافقة بين أنحاء الكلام حتى يقوم مواقعها وتطبق مفاصله"، وأورد قوله ﷺ "من كانت نيته الآخرة جعل الله سبحانه غناه في قلبه أتته الدنيا وهي راغمة."[٢٣] ثم قال معقباً: "هذه استعارة والمراد أتته الدنيا من حيث لا يطلبها، وردت عليه منافعها من حيث لا يحتسبها، فأقام ﷺ مواتاة الطلب من غير طلب مقام إتيانها راغمة، وإقبالها عليه ضارعة."[٢٤]

---

[١٧] الجاحظ، عمرو بن بحر. **رسائل الجاحظ**، بيروت: مكتبة الهلال، ط٢، ١٩٨٧م، ص١١٨.

[١٨] ومن الذين عنوا بالتأليف في معجزات الرسول ﷺ تثبيتاً لنبوته واحتجاجاً لدعوته أبو نعيم الأصفهاني والبيهقي.

[١٩] الجاحظ، **البيان والتبيين**، مرجع سابق، ص٥.

[٢٠] أورد خلال ذلك خطبة النبي في حجة الوداع، وأتى بأحاديث من دون أسانيد: ج٢ من ص١٨ إلى ص٢٣، ثم جاء بأحاديث بأسانيدها إلى ص٣٩. ووظف أحاديث ضعيفة بل نص العلماء على أن بعضها موضوع، ومن ذلك قوله: "إن الأحاديث ستكثر عني كما كثرت عن الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو عني قلته أم لم أقله." انظر:
– الجاحظ، **البيان والتبيين**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨.

[٢١] هو لقيط بن عامر المنتفق بن عامر أبو رزين العقيلي صحابي جليل، له صحبة ووفادة على الرسول ﷺ، وهو ممّن غلبت عليه كنيته. انظر:
– ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٩م، ج٨، ص٤٥٦. والمواتاة: "المطاوعة" وهي أن يطاوع السامع المتكلم ويسايره في الحديث؛ لأنه حاضر معه ويسمع صوته، يراه، ويرى حركات شفتيه وملامح وجهه وإشارات يديه. انظر كذلك:
– التوحيدي، أبو حيان. **الإمتاع والمؤانسة**، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٥.

[٢٢] أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. **السنن**، بيروت، دارابن حزم، ط٣، ١٩٩٨، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الرؤيا، حديث رقم ٤٣٦٦.

[٢٣] ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني. **السنن**، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط٢، ١٩٥٢، كتاب: الزهد، باب: الهم بالدنيا، حديث رقم ٤٠٩٥.

[٢٤] الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين. **المجازات النبوية**، القاهرة: مصطفى باب الحلبي، ١٩٣٧م، ص١٦٦.

وقد جمع الشريف الرضي في كتابه "المجازات" ثلاثمائة وستين حديثاً شرحها بأسلوبه، واشترط أن يكون كل ما يأتي به من مختار أحاديث النبي ﷺ مشتملاً على مجاز طريف، أو كناية دقيقة. وكان تأليف الكتاب استجابة لطلب شخص استحسن عمله في الكشف عن مجازات القرآن، وهو قوله: "فإنني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة التي أطلعتها، والدفينة التي آثرتها من كتابي الموسوم بـ: "تلخيص البيان في مجازات القرآن،"[٢٥] "وإن سلكت من ذلك حجة لم تسلك، وطرقت باباً لم يطرق، وما رغبت إلي فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ؛ إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، ولمع البيان الغريبة، وأسرار اللغة اللطيفة، يعظم النفع باستنباط معادنها، واستخراج كوامنها، وإطلاعها من أكمتها وأكنافها، وتجريدها من خللها وأجفافها، فيكون هذان الكتابان -بإذن الله- لمعتين يستضاء بهما، وعرينين لم أسبق إلى قرع بابهما، فأجبتك إلى ذلك مستخيراً الله سبحانه منه على كثرة الأشغال القاطعة، والعوائق المانعة، والأوقات الضيقة، والهموم المخنقة."[٢٦] ثم أشار إلى أنه يومئ إلى مواضع النكت البيانية بإشارات وجيزة، رغبة في ألاّ يطول الكتاب، فيجفو على الناظر، ويشق على الناقل."[٢٧]

وعن مصادره قال: "والذي اعتمد عليه في استخراج ما يتضمن الغرض الذي أنحو نحوه وأقصد قصده كتب غريب الحديث المعروفة، وأخبار المغازي المشهورة، ومسانيد المحدثين الصحيحة."[٢٨] إلاّ أنه رغم اهتمامه بالموضوع لم يسمِّ لنا الكتب التي اعتمدها.

وكتب المغازي ليست مصدراً من مصادر الحديث، وهي من الكتب التي لم يشدد الرواة في توثيق أخبارها مثلما فعلوا في كتب الحديث الأخرى. قال الإمام أحمد: "ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير."[٢٩] قال السيوطي: "الذي صحّ من ذلك قليل جداً،"[٣٠] وأنه لو ذكر أسماء المسانيد المعتمدة في هذا الكتاب لكان له قيمة علمية

[٢٥] والكتاب مطبوع في القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥.

[٢٦] الشريف الرضي، **المجازات النبوية**، مرجع سابق، ص٥.

[٢٧] المرجع السابق، ص٧.

[٢٨] المرجع السابق، ص٨.

[٢٩] الشوكاني، محمد بن علي. **الفوائد الموضوعة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ص٥٠.

[٣٠] المرجع السابق، ص٥٠. وانظر:

- البقالي، **التناسب البياني في الحديث**، مرجع سابق، ص٥٩

كبرى.[٣١] كما أنه لو استخلص من النصوص الوفيرة المعتمدة في المؤلف قاعدة، أو نظرية، أو دراسة تنتهي به إلى ضوابط تتعلق بوجه من أوجه التناسب البياني في الحديث، أو بمظهر من مظاهره، لكُتِب لعَمَلِه أن يتحرر من الأطر التي وضعها البلاغيون.

ويؤثر أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في كتاب الصناعتين[٣٢] مصطلح "الالتئام" للتعبير عن بعض أوجه التناسب البياني، فقال: "وتخير الألفاظ وإبدال بعض من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته، وأزين صفاته، وإن اتفق له أن يكون موقعه من الإيجاز والإطناب أليق لموقعه، وأحق بالمقام والحال كان جامعاً للحسن، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن"، ثم تحدث عن صنعة الكلام وترتيب الألفاظ، فقال: "ينبغي أن تجعل كلامه مشتبهاً أوله بآخره، ومطابقاً هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها، ومقرونة بلفقها، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام."[٣٣] وقد تناول في الباب الرابع حسن النظم وجودة الرصف، فقال: "وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها. وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى لفقها،"[٣٤] كما جعل الباب الثامن للسجع والازدواج، وأشار إلى أثر هذا الأخير في تناسب الكلام بقوله: "ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات... وقد جرى عليه كثير من كلامه ﷺ."[٣٥]

أما ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) فقد اعتمد كثيراً على الحديث في كتابه: "العمدة في صناعة الشعر ونقده،" فكان يأتي بمثال على القاعدة التي يضعها، وقلّماً كان

---

[٣١] في الكتاب أحاديث غير صحيحة.

[٣٢] الشوكاني، **الفوائد الموضوعة**، مرجع سابق، ص١٧١-١٩٠.

[٣٣] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. **كتاب الصناعتين**، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٧١م، ص١٤٧-١٤٨.

[٣٤] المرجع السابق، ص١٧٩.

[٣٥] المرجع السابق، ص٢٨٥-٢٨٦.

يعمد إلى الدراسة والتحليل، بل لم نجد تحليلاً موجزاً إلاّ في قوله: وقد قال النبي ﷺ: "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما." وقيل لحكمة، فقرن البيان بالسحر فصاحة منه ﷺ، وجعل من الشعر حكماً؛ لأن السحر يخيل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل والباطل بصورة الحق لرقة معناه ولطف موقعه."[٣٦] أما في المواضع الأخرى فكان يكتفي بإيراد الحديث واستحسانه، مثل قوله: قال النبي ﷺ للأنصار: "إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع،" وقال: "كفى بالسلامة داء،" ومثل هذا كثير في كلامه ﷺ، ومن أولى منه بالفصاحة وأحق بالإيجاز؟! وقد قال: "أعطيت جوامع الكلم،"[٣٧] وأورد قوله ﷺ: "فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم،" "والمرء كثير بأخيه"، وعلق قائلاً: "فهذا كلام في نهاية البيان والإيجاز."[٣٨]

وأشار إلى أثر المجاز في نفس القارئ والسامع، فقال: "والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع. وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ، ثم لم يكن مُحالاً محضاً فهو مجاز،"[٣٩] وأتى بأشعار وآيات بينات من كتاب الله، ثم قال: وقول

---

[٣٦] ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، القاهرة: مكتبة أمين هندية، ١٩٢٥م، ج١، ص٢٧. انظر أيضاً:
– الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، حديث رقم ١٨٢٠

[٣٧] ابن رشيق، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٣. انظر أيضاً تخريج الأحاديث على التوالي:
– القرطبي، أبو عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري، **تفسير القرطبي**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، تفسير سورة سبأ، آية ٥٢.
– القضاعي، أبو عبد الله محمد ابن سلامة. **مسند الشهاب**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٦م، ج٥، ص١٠٨.
– مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. **الجامع الصحيح**، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٦م، كتاب: المساجد، باب: فضلنا على الناس بثلاث، حديث رقم ٨١٢.

[٣٨] ابن رشيق، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٥. انظر أيضاً:
– أبو داود، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد، باب: في السرية ترد على أهل العسكر، حديث رقم ٢٣٧١.

[٣٩] ابن رشيق، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، مرجع سابق، ح١، ص٢٦٦. وانظر:
– البقالي، **التناسب البياني في الحديث**، مرجع سابق، ص٨٩.

النبي ﷺ: "العين وكاء السَّهِ." وقوله لِحَادٍ كان يَحْدُو به: "رويدك القوارير" كناية عن النساء لضعف عزائمهن إلى أكثر من هذا.[٤٠] وقال: "والاستعارة كثيرة في كتاب الله ﷻ وكلام نبيه ﷺ،" ثم أورد قوله عليه السلام: "الدنيا حلوة خضرة"، وقوله لِحالبٍ حَلَبَ ناقةً: "دع داعي اللبن"؛ أي بقية من اللبن في الحلب، وقوله: "تمسحوا بالأرض فإنها بكم بَرَّة". قال أبو عبيد: "يريد منها خلقهم وفيها معادهم وهي بعد الموت كفاتهم."[٤١] وقوله: "رب تقبل توبتي واغسل حوبتي؛" فغسل الحوبة استعارة مليحة.[٤٢] وفي مبحث التمثيل استشهد بأحاديث عدّة، من ذلك قوله: "الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة"، ومنه أيضاً قوله: "ظهر المؤمن مشجبه، وخزانته بطنه، وراحلته رجله، وذخيرته ربه." ومنه: "المؤمن في الدنيا ضيف، وما في يديه عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة، ونعم الصهر القبر."[٤٣] [٤٤] وبعد هذا العرض قال: "وكثير من هذا يطول تقصيه."[٤٥] ثم أثنى الحديث وبلاغته بكلام عام، فقال: ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه: "فليأخذ العبد

---

[٤٠] المرجع السابق، ج١، ص١٦٨. انظر تخريج الأحاديث على التوالي:
– ابن ماجة، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الطهارة وسننها، باب: الوضوء من النوم، حديث رقم ٤٧٠.
– البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأدب، باب: المعاريض مندوحة عن الكذب، حديث رقم ٥٧٤٣.

[٤١] الكفات: الموضع يضم فيه الشيء ويجمع. انظر تخريج الأحاديث على التوالي:
– مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث رقم ٤٩٢٥.
– الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، **السنن**، دمشق: دار القلم، ١٩٩١م، كتاب: الأضاحي، باب: في الحالب يجهد الحلب، حديث رقم ٢٠٤٩.
– الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الصغير**، عمّان: دار عمار، ١٩٨٥م، حديث رقم ٤١٧.

[٤٢] ابن رشيق، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٥. انظر أيضاً:
– الترمذي، محمد بن عيسى. **السنن**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، كتاب: الدعوات، باب: في دعاء النبي، حديث رقم ٣٤٧٤.

[٤٣] انظر تخريج الأحاديث على التوالي:
– الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الصوم، باب: ما جاء في الصوم في الشتاء، حديث رقم ٧٢٧.
– القاري، علي بن سلطان. **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٦م، ج٦، ص١١٩.
– الطبراني، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، حديث رقم ٨٤٥٥.

[٤٤] ابن رشيق، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٨.

[٤٥] المرجع السابق، ج١، ص٢٩٩.

من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار." فهذا هو المعجز الذي لا تكلّف فيه ولا مطمع في الإتيان بمثله.[٤٦] وتحدث في باب التقسيم عن دقة الرسول ﷺ وإحكامه، فقال: "ومن أشرف المنثور في هذا الباب قول رسول الله ﷺ: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا إذا أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت"، "فلم يبق –عليه الصلاة والسلام– قسماً رابعاً لو طلب يوجد."[٤٧]

عاصر ابن رشيق عَلَماً من أعلام البيان هو ابن سنان الخفاجي؛ إذ عُرف ابن سنان[٤٨] (ت. ٤٦٦هـ) بثقافته الشعرية والنثرية الواسعة، وينص مَن ترجموا له على أنه سمع الحديث النبوي، وبرع فيه. وفي كتابه "سر الفصاحة"، لم نجد له عناية بالحديث؛ لأن الغرض من تأليفه كان معرفة حقيقة الفصاحة، وقد أورد ذلك في مقدمته: "أما بعد: فإني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها وجملة من بيانها، وقرّبت ذلك على الناظر. وأوضحته للمتأمل ولم آمل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال، ومن الله تعالى استمد المعونة والتوفيق."[٤٩]

ومن النماذج الدالة من كلام ابن سنان الخفاجي على بعض الأحاديث من وجهة النظر البيانية، قوله في مبحث المزاوجة: "... حدثني أبو القاسم زيد بن علي الفارسي قال حدثنا أبو عبيد نعيم بن مسعود الهروي قال حدثنا أبو القاسم يحي بن القاسم القصباني قال حدثنا دعلج بن أحمد قال حدثنا علي بن عبد العزيز البغوي قال حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن غير واحد من رجاله عن أبي نعامة عمرو ابن عيسى العدوي عن مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد عن هبيرة عن النبي ﷺ: خير المال سكة

[٤٦] المرجع السابق، ٨/٢. انظر أيضاً:
– البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، باب: الزهد وقصر الأمل، ج١٣، ص١٥٣، حديث رقم١٠٠٦٧.

[٤٧] المرجع السابق، ج٢، ص٢١ انظر أيضاً:
– مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق،كتاب: الزهد والرقائق، باب، حديث رقم ٥٢٥٨.

[٤٨] انظر ترجمته في:
– ابن شاكر، **فوات الوفيات**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٣.

[٤٩] ابن سنان الخفاجي، **سر الفصاحة**، مرجع سابق، ص٣.

مأبورة، ومهرة مأمورة". فقال مأمورة لأجل المناسبة والمستعمل مومرة؛ أي كثيرة النتاج كما قرئ: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها" أي كثرنا. وحدثني زيد بن علي بهذا الإسناد عن أبي عبيد القاسم ابن سلام عن يزيد بن سفيان عن منصور عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يعوذ به الحسن والحسين عليهما السلام فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة."

ولم يقل ملمة لأجل المناسبة. وكذلك قوله ﷺ في بعض الحديث:

"ترجعن مأزورات غير مأجورات، جاء به هكذا؛ لأجل المناسبة؛"[٥٠] لأن مأزورات من الوزر والمستعمل موزورات فجاء به هكذا من أجل المناسبة.

ونخلص إلى أنه جعل للصياغة اللفظية مكانة مرموقة؛ إذ يرى أن أسرار روعة الحديث يجب أن تلتمس في جمال تلك الصياغة، كما اهتم بالإيقاع الصوتي وعدّه من أسباب روعة الحديث. وقد ضمّن كتابه "سر الفصاحة" مباحث بلاغية تناول فيها العناصر الإيقاعية؛ كالتلاؤم، والفواصل، وتناسب المقدار، والترصيع.

ومن العلماء الذين اهتموا بالحديث وشهدوا بتناسبه أبو حيان التوحيدي،[٥١] الذي أورد في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" مجموعة رائعة من النصوص الثابتة، بدءاً بصفحة (١٠٤) من الجزء الثاني، إلاّ أنه سردها سرداً من دون تحليل ولا دراسة. ومن ذلك قوله ﷺ: "ظهر المؤمن مشجبه، وبطنه خزانته، ورجله مطيته، وذخيرته ربه." كما تحدث عن البلاغة في كتابه "المقابسات".[٥٢] أمّا ابن الأثير (ت ٦٢٢هـ) فهو من أكثر المتقدمين

[٥٠] المرجع السابق، ص١٦٨-١٦٩. انظر تخريج الأحاديث على التوالي:
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، **المسند**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م، حديث رقم ١٥٢٤٨.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، حديث رقم ٣١٢٠.
- ابن ماجة، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في اتباع النساء الجنائز، حديث رقم ١٥٦٧.

[٥١] أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد. **البصائر والذخائر**، بيروت: دار صادر، ١٩٨٨م، ج١، ص٨.

[٥٢] أبو حيان التوحيدي، **المقابسات**، مرجع سابق، ص١٨٥. انظر أيضاً:
- القاري، **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**، مرجع سابق، ج٦، ص١١٩.

عناية بالحديث؛ إذ يرى أن قراءته وتذوقه يكسِب المرء قدرة على الكتابة والاستشهاد بالنصوص الثابتة، كما أن تدبر معاني الحديث يثري حصيلته الفكرية والمعرفية، يقول ابن الأثير: "وكنت جرّدت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر، كلها تدخل في الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة، حتى دار على خاطري وناظري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء."[٥٣]

ويلاحظ المتتبع لكتابه الواقع في جزأين أنه عني بالحديث، فقد درسه من الوجهة البلاغية، لكن ما كتبه عنه كان مجرد تعليقات عامة تدل على حبه واستحسانه للكلمة النبوية. من ذلك قوله: "وهذا من الحسن إلى غاية تغض لها العيون طرفها ولا ينتهي الوصف إليها فيكون ترك وصفها كوصفها."[٥٤] وكقوله في حديث: "إن قريشاً قد نهكتهم الحرب." وهذا الحديث من جوامع الكلم، وهو من "الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف الواصف."[٥٥] وقوله في الكناية: "هذه كناية واقعة في موقعها."[٥٦] وقوله في المبحث نفسه: "وهذه كناية لطيفة."[٥٧] وهكذا أنصبّت دراسته على التقسيمات التي وضعها البلاغيون من قبل، كالتشبيه: المركب، والعقلي، والحسي. وابن الأثير يورد هذه المصطلحات، ثم يطبِّق القاعدة على نص الحديث، مثل قوله: "وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب، ألا ترى أن النبي ﷺ شبه المؤمن القارئ، وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة، بالأترجة وهي ذات وصفين هما الطعم والريح."[٥٨] وهو بذلك لم يستخلص أوجهاً للتناسب البياني في الحديث، أو مظهراً من مظاهره، بصورة تفيد دارسي الحديث.

وخلاصة القول إن موضوع التناسب الحديثي لم يحظ باهتمام علماء البيان، وقبلهم الأدباء؛ إذ بقي هذا الموضوع مهملاً، فلا نكاد نقف على عمل يجمع أوجهاً من

[٥٣] ابن الأثير، نصر الله بن محمد. **المثل السائر**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ج١، ص١٣٢.

[٥٤] المرجع السابق، ج١، ص٣٩٥.

[٥٥] المرجع السابق، ج٢، ص٩٩. انظر أيضاً:

– البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة، حديث رقم ٢٥٢٩.

[٥٦] المرجع السابق، ج٢، ص١٨١.

[٥٧] المرجع السابق، ج٢، ص١٨١.

[٥٨] المرجع السابق، ج١، ص٣٨٨.

التناسب البياني في الحديث، ويبيِّن قيمة هذا المبدأ الجمالي الواسع. ويدعم هذا الرأي ما قاله سيد قطب في تقويم جهود المتقدمين في تفسير الذكر الحكيم: "وأيّاً ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز، فإنها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حِدَة، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه إلى الحد الذي تستطيع دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله."[٥٩]

ثانياً: التناسب في الدراسات الأدبية الحديثة

قامت في العصر الراهن محاولات جادة لدراسة البيان في الحديث النبوي الشريف، وكان بعضها مستقلاً بالبحث، وبعضها الآخر في ثنايا بحوث، أو دراسات لا تخلو من لمحات موفقة. ولعل من أشهرها جهود مصطفى صادق الرافعي، ومحمد الصباغ، وبعض الآراء المتناثرة في بطون الكتب.

١. جهود مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ):

خصّ الرافعي الجزء الثاني من كتابه "تاريخ آداب العرب" لموضوع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وأفرد هذا الموضوع ليكون كتاباً بنفسه تعم به المنفعة، ويسهل على الناس تناوله.[٦٠] وكتب الرافعي في البلاغة النبوية صفحات معدودة (ما يقارب ستاً وستين صفحة) ولكنها أصيلة، كما اتصف كتابه "وحي القلم" الذي جاء في ثلاث وثلاثين صفحة بجزالة اللفظ وقوة النسج. وقد تحدث في الكتاب الأول عن البلاغة الإنسانية، ثم أوضح أن فصاحته ﷺ توفيقية، واهتم ببحث القيمة الجمالية لتركيب الأصوات وتلاؤمها، وتناسب الألفاظ، وحسن ائتلافها، وأرجع أسباب روعة الحديث، وكمال تناسبه إلى اجتماع كلامه وقلته، وهو القائل "أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون"، و"إياي والتشادق."[٦١]

---

[٥٩] قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٧٨م، ص٣٢.

[٦٠] الرافعي، مصطفى صادق. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، صيدا: المكتبة العصرية، ٢٠٠١م، ص٢٤.

[٦١] المرجع السابق، ص٣٠٥. انظر أيضاً:

وهذا النص هو ما قاله في مستهل حديثه عن البلاغة النبوية: "ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي وإن لم تكن من الوحي، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم." وعن مراعاة روح النص ومقاصده عند اختياره ﷺ لألفاظه وكلماته، يقول: "إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين، فينفر بالدموع ويشتد فينزو بالدماء، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء."[٦٢] ويضيف قائلاً: "فإن هذا الكلام النبوي لا يعتريه شيء مما سميناه لك آنفاً، بل تجده قصداً محكماً متسايراً يشد بعضه بعضاً، وكأنه صورة روحية لأشد خلق الله طبيعة، وأقواهم نفساً، وأصوبهم رأياً، وأبلغهم معنى، وأبعدهم نظراً، وأكرمهم خلقاً، وهذا وشبهه لا يتأتى إلا بعناية من الله تأخذ على النفس مذاهبها الطبيعية، وتتصرف بسننها على غير ما يبعث عليه الطبع الحديد والخلق الشديد، ويخرجها من كل أمر متكافئة متوازنة."[٦٣] ووصف الكلام النبوي بأنه: "جامع مجتمع، لا يذهب في الأعم الأغلب إلى الإطالة، بل كالتمثال: يأتي مقدراً في مادته ومعانيه وأسلوب الجمع بينها وربط الصورة بالمعنى."[٦٤]

ويرى الرافعي أن الكلام النبوي أثّر في الأوضاع التركيبية أو في التركيب البياني، فكانت له في ذلك رتبة بعيدة المصعد... "وكان ﷺ على حد الكفاية في قدرته على الوضع، والشقيق من الألفاظ، وانتزاع المذاهب البيانية، حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تعد من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي كقوله ﷺ: مات حتف أنفه."[٦٥]

– ابن حنبل، **المسند**، مرجع سابق، حديث رقم١٧٠٦٦.

[٦٢] المرجع السابق، ص٢٧٩.

[٦٣] المرجع السابق، ص٢٩٣.

[٦٤] المرجع السابق، ص٢٩٣.

[٦٥] المرجع السابق، ص٣١٥. انظر أيضاً:

وذهب إلى قلة كلامه واجتماعه فقال: "وضرب آخر من الأوضاع التركيبية في بلاغة النبي ﷺ... يكون مجتمعا بنفسه منفرداً في الكلم القليلة، وهذا الضرب يتفق في بعض الكلام المبسوط، فتقوم اللمحة منه في دلالاتها بأوسع ما تأتي به الإطالة وتكفي من مرادفة المعاني وتوكيدها ومقابلة بعضها ببعض، فيكون السكوت عليها كاملاً طويلاً، والوقوف عندها شأواً بعيداً، وهو القليل في كلام البلغاء إلى حد الندرة التي لا يبنى عليها حكم، ولكنه كثير رائع في البلاغة النبوية، لما عرفت من أسباب قلة كلامه."[٦٦]

أ. تناسب المعاني عند الرافعي:

تحدث الرافعي عن هذا الجانب بشكل مقتضب، ويبدو أنه اعتمد في كلامه عن التناسب البياني في الحديث على كتابات الجاحظ، والشريف الرضي، وابن الأثير. وفي ذلك يقول: "ولو كان فيهم أفصح منه لعارضوه به، ولأقاموه في وزنه، ثم لجعلوا من ذلك سبباً لنقض دعوته والإنكار عليه، غير أنهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجهها وأشرف مذاهبها، ورأوا له في أسبابها ما ليس لهم، ولا يتعلقون به ولا يطيقونه، وأدنى ذلك أن يكون قوي العارضة، مستجيب الفطرة، ملهم الضمير، متصرف اللسان، يضعه من الكلام حيث يشاء؛ لا يستنكره في بيانه معنى، ولا يند في لسانه لفظ، ولا تغيب عنه لغة، ولا تضرب له عبارة، ولا ينقطع له نظم، ولا يشوبه تكلف، ولا يشق عليه منزع، ولا يعتريه ما يعتري البلغاء في وجوه الخطاب وفنون الأقاويل."[٦٧]

ثم عرض للعيوب التي تشوب كلام البلغاء قائلاً: "لا نرى العرب قد أقروا له بالفصاحة إلا وقد نزّه ﷺ عن جميعها، وسلم كلامه منها، وخرج سبكه خالصاً لا شوب فيه، وكأنما وضع يده على قلب ينبض تحت أصابعه... ."[٦٨] وبيَّن أنهم استجابوا له لما

– الحاكم، محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م، كتاب: الجهاد، باب: من خرج من بيته مجاهداً، حديث رقم ٢٤١٠.

[٦٦] المرجع السابق، ص٣٣٥-٣٣٦. وانظر:

– البقالي، **التناسب البياني في الحديث**، مرجع سابق، ص٩٦.

[٦٧] المرجع السابق، ص٢٨٦.

[٦٨] المرجع السابق، ص٢٨٦.

خص به من الفصاحة وحسن البيان، بقوله: "فإن القوم خلص لا يستجيبون إلا لأفصحهم لساناً وأبينهم بياناً، وخاصة في أول النبوة، قلما لم يعترضه شيء من ذلك، وهو لم يخرج من بين أظهرهم ولا جلا عن أرضهم، ورأينا هذا الأمر قد استمر على سنته واطّرد إلى غايته، وقام عليه الشاهد القاطع من أخبارهم... علمنا قطعاً وضرورة أنه ﷺ كان أفصح العرب، وافياً بغيره، كافياً من سواه، وأنه في ذلك آية من آيات الله إلى أولئك القوم."[٦٩] وعَدّ الرافعي التناسب المعنوي في الحديث من أولى الأسباب التي ساعدت على الاستجابة لدعوته ﷺ، وذلك لما تميز به الحديث من وجوه البيان لمعانيه التي تجري في مناسبة الوضع، ودقة النظم، مجرى ألفاظه في التناسب. وأرجع أسباب روعة الحديث إلى اجتماع كلامه، وقلة ألفاظه، واتساع معناه، وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، مع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وقد كان هذا منه عادةً وخلقاً يجري عليه الكلام في معنى ومعنى، وفي باب وباب، شيء لم يعرف في اللغة لغيره ﷺ. وأورد الرافعي نصوصاً من الحديث أبرز مراعاتها للتناسب في نظم المعاني، من ذلك: حديث "هُدنة على دَخَن." قال: "والهدنة الصلح والموادعة، والدَّخَن تغيير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه. وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإن فيها لونا من التصوير البياني لو أذيبت له اللغة كلها ما وفت به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ولياناً وانصرافاً عن الحرب وكفاً عن الأذى. وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعلّة من العلل، غلب ذلك على القلوب، فأفسدها حتى لا يستروح غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام بعد ذلكم مشوب مفسد."[٧٠]

فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة. وثمة لون آخر في صفة هذا المعنى، وهو اللون المظلم الذي تنصبغ به النية "السوداء"، وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة "الدخن". ثم معنى ثالث، وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سرّ البيان في العبارة كلها، وبها فضلت كل عبارة تكون في هذا

[٦٩] المرجع السابق، ص٢٨٧.
[٧٠] المرجع السابق، ص٣٠٠.

المعنى، وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب. فهذه حرب قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها نار أخرى، كما يُلقى الحطب الرطب على النار يخبو به قليلاً، ثم يستوقد، فيستعر، فإذا هي نار تلظى، وما كان فوقه الدخان فإن النار ولا جرم من تحته، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وجدت اللون البياني يصوره في تلك اللفظة لفظة "الدخن."[٧١]

ب. تناسب الألفاظ عند الرافعي:

تحدث الرافعي عن تناسب الألفاظ في النظم الحديثي، ضمن حديثه عن صفات الرسول ﷺ فقال: "إن نبينا ﷺ كان طويل السكوت ولم يتكلم في غير حاجة، فإذا تكلم لم يسرد سرداً بل فصّل ورتّل وأبان وأحكم بحيث يخرج كل لفظة وعليها طابعها من النفس...،" وذكر بأنه جمع خصالاً من إحكام الأداء لا يشاركه فيها منطق أحد، إلى حدّ لا تتوافى إلى غيره ولا تتساوى في سواه. وأضاف أن الحديث امتاز في نظم ألفاظه بميزة خاصة هي روح التركيب، بمعنى أن العناصر اللفظية امتزجت فيه على نسب خاصة، فتآلفت بشكل دقيق وتناسبت بصورة قوية، فأتى أسلوبه منفرداً في هذه اللغة، قد بان من غيره بأسباب طبيعية فيه.[٧٢]

ورأى أن تخيّر ألفاظ الحديث هو سرّ البيان في جملة التركيب. فمن ذلك قوله عليه السلام: "مات حتف أنفه." وقوله: "الآن حمي الوطيس." والوطيس هو التنور مجتمع النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا، وكأنما هي تمثل لك دماء نارية أو ناراً دموية...!"[٧٣] وساق ألفاظاً روعي في انتقائها مذهب التناسب، منها لفظ "الدخن"،

---

[٧١] المرجع السابق، ص٣٢٨-٣٢٩. انظر أيضاً:
– أبو داود، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها، حديث رقم٣٧٠٦.

[٧٢] الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مرجع سابق، ص٣٢١.

[٧٣] المرجع السابق، ص٣٢٨. انظر تخريج الأحاديث على التوالي:

ولفظ "نفس" في حديث: "بعثت في نفس الساعة" والذي مرّ معنا[٧٤] وقوله ﷺ لأنجشة، وكان يسير بالنساء في هوادجهن وهو يحدو بالإبل وينشد القريض والرجز، فتنشط وتجد وتنبعث في سيرها فتهتز الهوادج وتضطرب النساء اضطراباً شديداً "رويدك رفقاً بالقوارير." وقوله في يوم بدر: "هذا يوم له ما بعده." وعلّق قائلاً: لو أردنا أن نستقصي في جمعها وفي شرحها واستنباط وجوه البيان منها، لطال بنا القول جدّاً، ورجع أمر هذا الفصل أن يكون في معنى التأليف كتاباً برأسه، إن كنا لا نلتزم إلا جهة البيان وحدها". وأضاف قائلاً: "وكل ذلك من الأوضاع التي ابتدعها أفصح العرب ﷺ في هذه اللغة ابتداء ولم تسمع من أحد قبله، ولا شاركه في مثلها أحد بعد، وكل كلمة منها كما رأيت لا يعد لها شيء في معناها، ولا يفي بها كلام في تصوير أجزاء هذا المعنى وانتظام هذه الأجزاء ونفض أصباغها عليها، وهذا الضرب من الكلام الجامع هو الذي يمتاز البليغ في كل أمة بالكلمة الواحدة من مثله أو الكلمتين، أو الكلمات القليلة القليلة، لو ذهبت تحصيه في العربية ما رأيته إلا معدوداً..."[٧٥]

ويبدو أن النهج الذي سلكه الرافعي في دراسة التناسب اللفظي والصوتي يقوم على أساس أن العناصر الصوتية والمواد اللغوية مؤلفة بصورة محكمة، يراعى فيها من النسب والمقادير يجعلنا نحسّ روعة الموسيقى ومرونتها. وقد ربط الرافعي في هذا الجانب بين تناسب الأصوات، وجمال الصوت وحسن الداء، ممّا يضفي على الكلمة النبوية وضعاً خاصاً يخدم المعنى ويقود إليه. يقول في ذلك: "إن الفصاحة راحة إلى حسن الملاءمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها، حتى تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع

– الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد، باب: من خرج من بيته مجاهداً، حديث رقم ٢٤١٠.

– مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، حديث رقم ٣٣٢٤.

[٧٤] الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مرجع سابق، ص٣١-٣٣ من التمهيد.

[٧٥] المرجع السابق، ص٣٣٠-٣٣١. انظر تخريج الأحاديث على التوالي:

– البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأدب، باب: المعاريض مندوحة عن الكذب، حديث رقم ٥٧٤٣.

– ابن حنبل، **المسند**، مرجع سابق، حديث رقم ٥٥١١.

اللغوي."[٧٦] ويبيِّن أن محاسن هذا الباب كانت في النبيﷺ طبيعية؛ لأنها عن أسباب طبيعية، وقد وصفوه مع ذلك بحسن الصوت، عن قتادة قال: "ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم ﷺ حسن الوجه حسن الصوت." وهو تمامها وحليتها، فإن هذه اللغة خاصة تحمل بذلك ما لا تحمل به سائر اللغات لما فيها من معاني الأوضاع الموسيقية في خفة الوزن، وصحة الاعتدال، وتمام التساوي، وحسن الملاءمة، فلا جرم أن كان منطقه ﷺ على أتم ما يتفق في طبيعة اللغة، ويتهيأ لها إحكام الضبط، وإتقان الأداء. لفظ مشبع ولسان بليل، وتجويد فخم، ومنطق عذب، وفصاحة متأنية، ونظم متساوق، وطبع يجمع ذلك كله، مع تثبت، وتحفظ، وتبيّن، وترسّل، وترتيل.

وبعد ذلك ذكر حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه." وفي رواية أخرى عنها أيضاً: "كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه،" وقال: "وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ﷺ عند أسبابها الطبيعية." ويرى أن ما من حرف أو حركة إلا وقعت في النص موقعها المناسب بحيث تخرج كل لفظة، وعليها طابعها من النفس وهو بذلك قد جمع خصالاً من إحكام الأداء، لا يشاركه فيها منطق أحد إلى حدّ لا تتوافى إلى غيره ولا تتساوى في سواه.[٧٧]

ويُعَدّ الرافعي أول مَن أولى اهتماماً بقيمة الأصوات اللغوية، وجمال نظمها؛ إذ أحس بقيمتها في جمال الكلمة النبوية، كما استشعر روعة الموسيقى في النظم الحديثي المتوازن في العبارة الذي يصاحب المعنى مصاحبة واعية، ومن أجل هذا كانت كتاباته ذات تأثير قوي في مَن عاصروه من المهتمين بالبلاغة النبوية، أو بأوجه من التناسب الحديثي.

---

[٧٦] الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مرجع سابق، ص٢٩٥-٢٩٦.

[٧٧] المرجع السابق، ص٢٩٧-٢٩٩. انظر تخريج الأحاديث على التوالي:

- الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الشمائل، باب: ما بعث الله نبيّاً إلاّ حسن الوجه، حديث رقم ٣١١.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي، حديث رقم ٣٣٠٣.

٢. جهود محمد الصباغ:

بحث محمد الصباغ في كتبه بعض مظاهر التناسب، وذلك أثناء البحث في بلاغة الحديث كما ورد في كتابيه: "الحديث النبوي"، و"التصوير الفني في الحديث النبوي". وقد أفرد الصباغ الباب الثاني من الكتاب الأول للبلاغة النبوية، ومكانة السنة في اللغة والأدب.[٧٨] أمّا الكتاب الثاني فجمع فيه طائفة من الأحاديث الحافلة بالصور الفنية، وقد تتبعها في كتب السُّنة. ووجدنا أنه من أكثر الكتب اهتماماً ببعض أوجه التناسب، إلاّ أن اهتمامه كان منصبّاً على التصوير بشكل خاص لعلاقته بموضوع الدراسة عنده، وهو في تحليله للنصوص لم يتقيد بالقواعد والقوالب التي ذكرها المتقدمون في علم البلاغة؛ لأنه رأى: "أنها تحجب كثيراً من نواحي الجمال وأسراره."[٧٩] وفيما يخص الجانب الإيقاعي في الحديث فقد تعرّض له بدراسة بعض النصوص في الباب الأخير الموسوم بِـ: "الصور الحسية والمعنوية في وسائل التصوير وعلاقاته." والحق أن دراسته هذه للصورة الفنية هي أوفر دراسات المحدثين قدراً، وأكثرها تحرّراً من أقوال علماء البلاغة، وأعمقها تفاعلاً مع نصوص السُّنة الجميلة.

ثالثاً: تناسب الأصوات في نظم الحديث

١. التناسب الصوتي في النظم الحديثي:

إذا أعدنا قراءة الحديث؛ إذ نتأمل جرس كل كلمة، ونمعن النظر في مواقع الحروف، ونتذوق جمال النظم الصوتي في حسن السمع، وجدنا هذا الانسجام النابع من اختياره ﷺ لمواده اللفظية ذات النبرات الموسيقية العذبة والإيقاع الفريد.

فكل كلمة تثير بجرسها معاني شتى، وتصوِّر ما ينبغي للإنسان فعله، وما يتعيّن عليه تركه، فتسترعي لغته وجدان السامع بموسيقاها، وروعة نظمها الذي يؤلف صوراً بديعة،

---

[٧٨] الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مرجع سابق، ص٤٥-٩٧.

[٧٩] الصباغ، محمد لطفي. **التصوير الفني في الحديث**، دمشق: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣م، ص٥٨٤. وانظر:
- البقالي، **التناسب البياني في الحديث**، مرجع سابق، ص١٢٣.

ولا يعتمد على الكلمات المفردة في جمال إيقاعه؛ ذلك أنه قد تكون الكلمة مقبولة في ذاتها، ولكنها عندما تجتمع مع كلمات أخر يحصل تنافر بينها، ونبوٌ لها عن الأذن، واستثقالٌ للنطق بها. أمّا الكلمات الحديثية فعندما تُضم الواحدة منها إلى أخواتها يحلو جرسها، وتزيد عذوبتها، ويحسن إيقاعها.

ومرد ذلك الموهبة الفذة التي منحها الباري عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ في النظم الصوتي الموسيقى للحديث، والتآلف المدهش بين مخارج الحروف؛ إذ لا نرى ازدحاماً لحرف ثقيل في المتون الحديثية. وكذلك التسلسل في الإيقاع، فلا نجد انتقالاً مفاجئاً من إيقاع إلى آخر إلاّ إذا تطلب المضمون ذلك. والبُعد عن التكلف وإرسال النفس على سجيتها. والتوزيع المحكم للمحركات الصرفية واللغوية في صياغة تعابيره بضروب من النغم الموسيقي.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الباحث في الدراسات الحديثية لا يجد شيئاً من التحليل الموضوعي أو الذاتي الذوقي للنظم الصوتي في الحديث. وما تمدّه به الدراسات الأدبية القديمة، والدراسات الفنية الحديثية لا يقدِّم تحليلاً متكاملاً دقيقاً يوضّح حسن التأليف في السمع، ويكشف عن أسباب تناسب الأصوات في المصدر الثاني. باستثناء بعض الإشارات الواردة في كتابات الرافعي في "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، وأبحاث محمد الصباغ في كتابه "التصوير الفني في الحديث".

٢. تجنب أسباب التنافر الصوتي في النظم الحديثي:

إن لغة الحديث لغة موسيقية، تستريح الأذن إلى ألفاظها ونظمها المرتل، فهي تصنع مادتها معتمدة على الوزن والحركة، وهي في جملتها فن منظوم، منسق الأوزان، متناسب الأصوات، ويتجسد هذا المظهر في استخدام الحديث جهاز النطق أحسن استخدام، يهدي إليه الافتتان في الإيقاع الموسيقي.

لقد راعى الحديث في نسجه لعباراته تناسب الأصوات وحسن ائتلافها، وذلك بـ:

أ. تجنب تتابع الأصوات المتماثلة والمتقاربة:

- تجنب الحديث الجمع بين ظاءين في مقطعين أو جملتين متتابعتين:

من ذلك ما ورد في دعائه ﷺ: "اللهم رب السموات ورب الأرض، ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء. فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدَّيْن، واغنِنا من الفقر."[٨٠]

ذكر الحديث حرف "الظاء" في المقطع الأول، وعرض بعض صفات الباري في المقاطع الموالية، متجنباً تتابع هذا الحرف فيها؛ وذلك لأنه يعز في لغة العرب. روى الليث أن الخليل قال: "الظاء حرف عربي خصّ به لسان العرب، لا يشركهم فيه أحد من سائر الأمم."[٨١] لذا نجد الحديث استعمله عند افتتاحه النص: "ورب العرش العظيم" وعند اختتامه: "وأنت الظاهر" وذلك مراعاة منه لحسن التأليف وجودة الصياغة.

وعن عبد الله بن عمر قال: لم يكن النبي ﷺ يدع هذه الكلمات حين يمسي وحين يصبح: "اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسالك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن اغتال من تحتي."[٨٢]

ورد ذكر الظاء وسط الحديث وآخره، ولم يأت ذكرها في جملتين أو مقطعين متتابعين؛ تجنباً لتتابع الحركات الثقيلة، وحفاظاً على جمال النظم.

- تجنب الحديث تكرار الحرفين المتماثلين:

عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دوي صوته، ولا يفقه ما يقول حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع.

---

[٨٠] مسلم، **الجامع الصحيح**. مرجع سابق، كتاب: الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم ٢٧١٣.

[٨١] ابن سيدي الأمين، محمد. **الوجيز في أحكام التجويد**، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٢م، ص٥٤.

[٨٢] أبو داود، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، حديث رقم ٤٤١٢.

قال وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع."[٨٣] فالأصل: "تتطوع" بتاءين، وقد أدغمت إحداهما؛ تجنباً لتكرار الحرف الواحد.

ورد في المثل السائر ما نصه: "إن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم. ولشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفاً آخر غيره..."[٨٤] ومن هذا القبيل حذف تاء المضارعة وإدغامها في لام الفعل المضارع من صيغة "تفعل" المسند إلى ضمير المخاطب أو المخاطبين من الحديث الآنف الذكر. ومنه ما ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً."[٨٥] فقد حذف الحديث "التاء" من: "تقاطعوا"، و"تدابروا"، و"تباغضوا"، و"تحاسدوا"؛ كراهية اجتماع حرفين متماثلين، وهو كثير في الأسلوب الحديثي.

- تجنب تتابع الأصوات القوية:

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها."[٨٦]

إن الحسد المذكور في النص هو الغبطة، ودلّ عليه ما زاده أبو هريرة ﷺ في الحديث: "فقال رجل ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل."[٨٧] وأطلق الحسد عليه؛ تجنباً لذكر صوت الطاء وهو من أقوى الحروف الهجائية مرتين في الجملة المعقودة عقد كلام واحد. ومن هذا القبيل، ما جاء عن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من

---

[٨٣] مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، حديث رقم ١٢.

[٨٤] ابن الأثير، **المثل السائر**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٣-٤٠٤.

[٨٥] مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس، حديث رقم ٤٦٤٨.

[٨٦] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: العلم، باب: الاغتباط في العلم والحكمة، حديث رقم ٧١.

[٨٧] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: فضائل القرآن، باب: اغتباط صاحب القرآن، حديث رقم ٤٦٣٨.

أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة، فإن صلاتكم معروضة علي، فقالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟"[٨٨] [٨٩]

أصله "أرممت"؛ أي بليت، فحذفت إحدى الميمين؛ تجنباً لتكرار الحرفين المتماثلين.

ب. تجنب بعض الألفاظ والأبنية الصرفية:

عدل الحديث عن استعمال بعض الألفاظ إلاّ بصيغة الجمع، وعدل عن استعمال بعضها إلاّ بصيغة الإفراد، وتجنب استعمال ألفاظ أخرى مجموعة، من ذلك لفظ "الأرض"؛ إذ لم يرد في الحديث إلا مفرداً، فإذا ذكرت السماء مجموعة وردت الأرض مفردة.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو بكر: يا رسول الله مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: "قل اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ربّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شرّ نفسي ومن شرّ الشيطان وشركه، قال: قله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك."[٩٠]

وعن عبد الله بن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: "اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض."[٩١]

وتجنب الحديث النبوي استعمال بعض الألفاظ؛ طلباً لخفة العبارة، ومن ذلك لفظ "آمن" الذي هو أخف من صدق. لذا كثر ذكره في الحديث الشريف، من ذلك ما جاء عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل قال: "... اللهم لك أسلمت وبك آمنت."[٩٢] وعن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، ثم أدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه."[٩٣] وعن البراء

---

[٨٨] وأرمت؛ أي صرت رميماً.

[٨٩] أبو داود، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الصلاة، باب: فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، حديث رقم ٨٨٣.

[٩٠] الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الدعوات، باب: منه، حديث رقم ٣٣١٤.

[٩١] مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم ١٢٨٨.

[٩٢] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجمعة، باب: التهجد بالليل، حديث رقم ١٠٥٣.

[٩٣] المرجع السابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم من أهل الكتابيين، حديث رقم ٢٧٨٩.

بن عازب قال: أمر الرسول ﷺ رجلاً إذا أخذ مضجعه أن يقول: "... آمنت بكتابك الذي أنزلت."[٩٤]

كما تجنب الحديث النبوي صيغتي المضارع والأمر من فعل "جاء"، وعدل إلى مرادفه في نصوص كثيرة، دل استقراؤها على اطراد هذه القاعدة. فعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "رأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره. فإذا هو ما أصيب من المسلمين يوم أحد. ثم هززته أخرى فعاد كأحسن ما كان. فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين. ورأيت فيها أيضاً بقراً –والله خير– فإذا هو النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر."[٩٥]

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها فإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفّر عن يمينك، وأتِ الذي هو خير."[٩٦] وعن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: "يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة."[٩٧] وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون، وعليكم بالسكينة."[٩٨] وعن أنس ﷺ قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: "اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار."[٩٩]

---

[٩٤] المرجع السابق، كتاب: الوضوء، باب: فضل من بات على الوضوء، حديث رقم ٢٣٩.

[٩٥] المرجع السابق، كتاب: المغازي، باب: فضل من شهد بدراً، حديث رقم ٣٦٨٨.

[٩٦] الدارمي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: النذور والإيمان، باب: من حلف على يمين فوجد غيرها خيراً منها، حديث رقم ٢٤٠١.

[٩٧] الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الدعوات، باب: في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، حديث رقم ٣٤٦٣.

[٩٨] النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. **السنن**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، كتاب: الإمامة، باب: السعي إلى الصلاة، حديث رقم ٨٥٢.

[٩٩] مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا، حديث رقم ٤٨٥٣.

لقد آثر الحديث استعمال هذا اللفظ، فأتى النظم متناسباً في معانيه ومبانيه وأصواته. ومنه لفظ "الريب"؛ فهو أحسن من "الشك" لثقل الإدغام. فعن الحسن بن علي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك."[١٠٠] ومنه لفظ "أنذر" الذي هو أخف من لفظ "خوف". قال ﷺ: "أنا النذير والموت المغير."[١٠١] ومنه ما جاء عن عبد الله بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: "إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم... ."[١٠٢] ومنه لفظ "وخيركم"؛ إذ هو أخف من لفظ "أفضلكم". فعن عمران بن الحصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: "خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم."[١٠٣] وعن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[١٠٤] وكذا لفظ "والفضل" فهو أخف من لفظ "الخير". فعن جابر بن عبد الله قال: "كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمر كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: ...وأسألك من فضلك العظيم... ."[١٠٥]

كما أن لفظ "نكح" أخف من لفظ "تزوج"؛ لأن "فعل" أخف من "تفعل"، ولهذا ورد ذكر النكاح في الحديث أكثر من الزواج. فعن أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه."[١٠٦] وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك."[١٠٧]

---

[١٠٠] الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: صفة القيامة، باب: منه، حديث رقم ٢٤٤٢.

[١٠١] أبو يعلى، أحمد بن علي، **المسند**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، رقم ٦٠١٤.

[١٠٢] مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، حديث رقم ٣٤٣١.

[١٠٣] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور، حديث رقم ٢٤٥٧.

[١٠٤] المرجع السابق، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، حديث رقم ٤٦٣٩.

[١٠٥] المرجع السابق، كتاب: الصلاة، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث رقم ١٣١٥.

[١٠٦] المرجع السابق، كتاب: بدء الوحي، حديث رقم ١.

[١٠٧] المرجع السابق، كتاب: النكاح، باب: الأكفاء في الدين، حديث رقم ٤٧٠٠.

ج. التناسب بين المعنى والإيقاع الصوتي:

لاحظت غالباً أن حروف العربية تناسب معانيها، وأن للحرف العربي قيمة تعبيرية في العلوم اللسانية والصوتية؛ وأن الأصوات اللغوية مركبة من أحرف معبرة؛ إذ يستقل كل حرف ببيان معنى خاص ما دام يستقل بإحداث صوت معين، كما يمتاز كل حرف بظل وإشعاع خاصين به مثلما يمتاز بصدى وإيقاع، فمتى كانت الأصوات ذوات إيقاع قوي كانت الأصوات ذات الجرس القوي غالبة، ومتى كانت ذوات إيقاع رخي كانت نسبة الأصوات اللينة والضعيفة هي الغالبة.

يراعي النظم الحديثي في توزيع الأصوات وتأليفها ما يناسب المعاني والمقامات، فيشتد الخطاب في مقامات الإنذار، والوعيد، ووصف غضب الله، ويرقّ في مقامات الترغيب والتلطف، ومخاطبة المؤمنين، وفي الأذكار، والأدعية. ولهذا كان لتوزيع الأصوات في الخطاب الحديثي قيمة جلية في تكييف الإيقاع؛ شدة وليناً، قوة وضعفاً. وما يفيدنا هنا هو التمثيل المقرون بالتحليل والاستنتاج؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطراً."[١٠٨] إنه مشهد يصوِّر لنا موقف الباري من المتكبِّر، فجاءت موسيقى النص معبِّرة عن المعنى بحيث بُدئ بهذا التأكيد القاطع باستخدام "إن"، واستعمل الفعل المسبوق "بلا" النافية لزيادة بيان انصراف الله عمّن يقترف هذا المحظور.

وجاء تكرار حرف "الراء" أربع مرات في: "ينظر"، "يجر"، "إزاره"، "بطراً " لرسم صورة معبِّرة عن غضب الله على مَن ينازعه صفة من صفاته الذاتية.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر".[١٠٩] فالإيقاع الصوتي للفظ "يغر" "غر" أتى مناسباً للمعنى المراد تقريبه من المخاطب، وتكرار المقطع "يغرغر" جعلنا نحس الموقف الصعب والحركة الشاقة العسيرة عند الموت. وقد رسمت هذه الصورة بألفاظها التي تألفت من أصوات قوية مناسبة بين المعنى والإيقاع الصوتي.

---

[١٠٨] مسلم، **الجامع الصحيح**، كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم جر الثوب خيلاء، حديث رقم ٣٨٩٣.
[١٠٩] الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الذبائح، باب في فضل التوبة والاستغفار، حديث رقم ٣٦١٤.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، كما آمركم المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا – ويشير إلى صدره– بحسب امرئ من الشر أن يحقّر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صدوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم."[١١٠] وفي رواية: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا."[١١١]

مثّلت الموسيقى أبرز عناصر الشكل في هذا النص، فأتت متغيرة الإيقاع بحسب المضمون، وأدت الحروف المتجاورة دوراً بارعاً في الصورة، كما أدّى التوازن والتقطيع الصوتي المحكم دوراً رائعاً. أمّا الانسجام في أصوات الحروف وإيقاعها فقد أسهم في حلاوة جرسها وزاد من عذوبتها، ونظير هذه المشاهد التي تتوزّع فيها الأصوات وفقاً لمضامينها كثيرة في كلمه ﷺ؛ إذ نجده يتمتع بجرس موسيقي بديع، تنساب حروفه على اللسان انسياباً، وتتحد مع مضمونه في إطار تصويري مدهش. ولو أعدنا قراءة الحديث مرّة أخرى، لبدا لنا أن ألفاظه المتناسبة التي تألفت منها أصواته أسهمت في إبراز المعنى وتأكيد المغزى.

فالصوت الذي تكرّر في "الدال" الممدودة والمضمومة في "تحاسدوا"، و"تدابروا"، و"عباد"، و"دمه"، و"الضاد" الممدودة والمضمومة في "تباغضوا"، و"السين" الممدودة والمضمومة في "تحسسوا"، و"تجسسوا"، و"تنافسوا"، و"الراء" المضمومة والممدودة في "تدابروا" عُبِّر فيه عن النهي بقوة وشدة.

كان ﷺ دقيقاً في بناء كلامه وصياغته، وحسن نسجه، وجودة نظمه. وللتدليل على هذا يمكن الرجوع إلى المجازات النبوية، فهي تجمع بين الوفاء بحق المعنى والتناسب الإيقاعي. ومن ذلك قوله ﷺ: "اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب،

[١١٠] المرجع السابق، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، حديث رقم ٤٦٤٦.

[١١١] المرجع السابق، حديث رقم ٤٦٤٨.

والحور بعد الكور، وسوء المنظر في الأهل والمال."[١١٢] ومنه قوله ﷺ: "أوثق العرى التقوى."[١١٣] وقوله ﷺ: "إياكم والمشارّة، فإنها تحي العرة وتميت الغرة."[١١٤]

هكذا كان ﷺ يعدل عن التعبير الحقيقي إلى الكناية أو المجاز؛ وفاءً بحق النظم، وأداءً للمعنى المراد إبلاغه.

ويرى ابن جني أن العدول إلى المجاز يكون لمعانٍ ثلاثة، هي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، وقد جمعها قوله ﷺ في الفرس: "هو بحر."[١١٥]

وأضاف "أما الاتساع، فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي: فرس، وطرق، وجواد، ونحوها "البحر"، حتى إنه إن احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء، لكن لا يفضي إلى ذلك لا بقرينة تسقط الشبهة."[١١٦]

ونخلص إلى أنه كان يتجنب تناسب الفواصل، وإن أتاه، جمع فيه بين حق اللفظ وحق المعنى، ولذلك لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ.[١١٧]

خاتمة:

خلصت الدراسة إلى أن التناسب هو علم كثرت فيه التسميات، وتداخلت فيه التحليلات، وتضاربت فيه المدارس الفكرية، خاصة عند أصحاب اللفظ والمعنى، وأن عدم اتساق المفاهيم ووحدتها يشكّل خطراً كبيراً على استقامة الفكر؛ الأمر الذي يتطلّب

---

[١١٢] النسائي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من الحور بعد الكور، حديث رقم ٥٤٠٣.

[١١٣] الترمذي، **السنن**، مرجع سابق، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الفتح، حديث رقم ٣١٨٨.

[١١٤] البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، كتاب: حسن الخلق، فصل في التواضع وترك الزهو والصلف والخيلاء والمدح والفخر، حديث رقم ٤٩٨.

[١١٥] ابن جني، عثمان بن جني الموصلي، **الخصائص**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م، ج٢، ص٤٤٢.

[١١٦] المرجع السابق، ج٢، ص٤٤٥. وانظر:
– البقالي، **التناسب البياني في الحديث**، مرجع سابق، ص١٥٧.

[١١٧] الجاحظ، **البيان والتبيين**، مرجع سابق، ج٢، ص١٧.

إيجاد قاعدة راسخة لاستعمال مفهوم التناسب. كما بيّنت الدراسة أن الباحثين من القدماء والمحدثين لم يظهروا عناية جادة بدراسة التناسب البياني، وتفحصه في ضوء الحديث النبوي الشريف. وعليه، فإن البحث في موضوع التناسب لا يزال باباً مشرعاً للبحث والدراسة؛ نظراً إلى أهمية التناسب وغناه، وقلّة الدراسات في هذا المجال كمّاً ونوعاً.

وتوصلت الدراسة إلى أن أوجه التناسب في النظم الحديثي نظم رائع، ونسج بالغ، تناسبت معانيه، وتآلفت مبانيه، وتوافقت ألفاظه، وانسجمت أصواته، واتزنت إيقاعاته. فهو نص متحد النسق، محكم الأجزاء، متناسب المطلع والمقصد، جيد التخلص، يعتمد التوافق ومراعاة النظير حيناً، ويرتكز على التقابل والتضاد حيناً آخر، وتتعاون هذه المظاهر الأسلوبية على خدمة المعنى، وإبلاغ المقصد الأسمى.

واتضح من مبحث التناسب الصوتي والإيقاعي في الحديث أن جودة نظمه من الناحية الصوتية تنبعث من الكلمة المفردة، ومن الجملة المركبة، ومن الكلام النبوي كلّه، فجاء النسيج الصوتي الداخلي للنص النبوي بعيداً عن الأصوات المتنافرة، والحروف الثقيلة، لا سيّما أن المقاطع الصوتية تناغمت تناغماً مميّزاً مع المضمون. وفي الوقت الذي انتظمت فيه الحروف المتجاورة في الجملة بشكل بارع، أدّى التوازن والتقطيع الصوتي دوراً في التناسب. أمّا الانسجام في أصوات الحروف وإيقاعها فبلغ درجة الكمال في نظم الحديث.